الفصل السادس

فضل الصحابيات

رضوان الله عليهن

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد

هي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، تجتمع مع النبي ﷺ في قصي وهي من أقرب نسائه إليه في النسب ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها، إلا أن أم حبيبة، تزوجها ﷺ بمكة وهو ابن خمسة وعشرين سنة، وكانت قبله عند أبي هالة بن النباش ابن زرارة التميمي[1] حليف بني عبد الدار، وقد بقيت رضي الله عنها مع النبي ﷺ إلى أن أكرمه الله برسالته، وكانت أول من آمن به من النساء، وصدقته ونصرته، فكانت له وزير صدق وهي سيدة نساء العالمين في زمانها، وهي ممن كملت من النساء، فقد كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة من أهل الجنة، وكان عليه الصلاة والسلام يثني عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ويبالغ في تعظيمها، ولم يتزوج النبي ﷺ امرأة قبلها، وكل أولاده عليه الصلاة والسلام منها إلا إبراهيم رضي الله عنه، فإنه من سريته مارية رضي الله عنها، ولم يتزوج النبي ﷺ عليها امرأة قط، ولا تسرى إلى أن قضت نحبها، فوجد لفقدها، فإنها كانت نعم القرين، فلقد أنفقت عليه ﷺ من مالها، واتجر فيه لها رضي الله عنها وأرضاها، وكانت وفاتها رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين[2].

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بمناقبها الكثيرة ومن تلك الأحاديث:

1 - ما رواه الحاكم بإسناده إلى عفيف بن عمر، وقال: كنت امرأ تاجراً، وكنت صديقاً للعباس بن عبد المطلب في الجاهلية، فقدمت لتجارة فنزلت على العباس بن عبد المطلب بمنى فجاء رجل فنظر إلى الشمس حين مالت فقام يصلي، ثم جاءت امرأة، فقامت تصلي ثم جاء غلام حين راهق الحلم فقام يصلي فقلت للعباس: من هذا؟ فقال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن أخي يزعم أنه نبي، ولم يتابعه على أمره غير هذه المرأة وهذا الغلام، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد امرأته، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب، قال

(1) وقيل: كانت قبله عند عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ثم خلف عليها النبي ﷺ وهذا قول أبي عمر بن عبد البر انظر الاستيعاب على الإصابة 272/4.

(2) طبقات ابن سعد 131/1، الاستيعاب على حاشية الإصابة 271/4 - 281، أسد الغابة 434/5، تاريخ الإسلام 41/1، مجمع الزوائد 218/9 - 225، فتح الباري 134/7، الإصابة 273/4 - 276.

عفيف الكندي: وأسلم وحسن إسلامه: لوددت أني كنت أسلمت يومئذ فيكون لي ربع الإسلام[1].

هذا الحديث اشتمل على منقبة عظيمة لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وهي أنها كانت من السابقين الأولين إلى الإسلام.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها فيكون لها مثل أجرهن لما ثبت: **«أن من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء»** [2] وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق بالنسبة إلى الرجل، ولا يعرف قدر ما لكل منهما من الثواب بسبب ذلك إلا الله - عز وجل [3].

2 - روى الإمام البخاري بإسناده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو غار حراء، فجاءه الملك فقال: **«اقرأ قال: "ما أنا بقارئ"**

قال: "فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١ - ٣]**»** فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: **«زملوني زملوني»** فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال: لخديجة وأخبرها الخبر: **«لقد خشيت على نفسي»** فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على

(1) المستدرك 183/3 ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
(2) الحديث في صحيح البخارى 100 مسلم 2673
(3) فتح الباري 137/7.

نوائب الحق. الحديث[1].

فهذا الحديث تضمن ذكر منقبة ظاهرة لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وهي أنها كانت تقوي قلب النبي ﷺ في بداية نزول الوحي عليه وطمأنته عليه الصلاة والسلام مما كان يخشاه على نفسه، وهونت عليه الأمر، وأنه لا خوف عليه ولا حزن، وأقسمت للنبي ﷺ على أن الله لا يخزيه ولا يخذله، واستدلت على ما أقسمت عليه بما فيه من صفاته الطيبة من أصول مكارم الأخلاق التي هي إحسانه إلى الأقارب والأجانب إما بالبدن، وإما بالمال وبينت له أن من وجدت فيه هذه الخصال الحميدة لن يخزيه الله أبداً.

3 - ومن مناقبها رضي الله عنها التي انفردت بها دون سائر أزواج النبي ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام لم يتزوج عليها حتى فارقت الحياة الدنيا، فقد روى مسلم بإسناده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت[2].

قال الحافظ: "وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم بالأخبار وفيه دليل على عظم قدرها عنده وعلى مزيد فضلها، لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين، لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عاماً، انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاماً وهي نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها فيها من الغيرة، ومن تكدر الضرائر الذي ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك وهي فضيلة لم يشاركها فيها غيرها"[3].

4 - ومن مناقبها العظيمة التي شرفت بها أن النبي ﷺ أخبر بأنها خير نساء هذه الأمة المحمدية قاطبة: فقد روى الإمام البخاري بإسناده إلى علي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة»** [4].

وعند الإمام مسلم بلفظ: **«خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت**

(1) صحيح البخاري 4956 مسلم 160.
(2) صحيح البخارى 3816، مسلم 2435.
(3) فتح الباري 137/7.
(4) صحيح البخاري 3815، مسلم 2430.

خويلد» قال أبو كريب وأشار وكيع إلى السماء والأرض[1].

قال النووي رحمه الله: "قوله ﷺ : **«خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»** وأشار وكيع إلى السماء والأرض" أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في نسائها، وأن المراد به جميع نساء الأرض أي: كل من بين السماء والأرض من النساء والأظهر، أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه"[2].

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: "الضمير عائد على غير مذكور لكنه يفسره الحال والمشاهدة يعني: به الدنيا".

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر أقوال العلماء في مرجع الضمير في قوله ﷺ : **«خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة»** والذي يظهر لي أن قوله: **«خير نسائها»** خبر مقدم والضمير لمريم فكأنه قال: مريم خير نسائها أي: نساء زمانها وكذا في خديجة، وقد جزم كثير من الشراح أن المراد نساء زمانها لما تقدم في أحاديث الأنبياء في قصة موسى، وذكر آسية من حديث أبي موسى رفعه "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية" فقد أثبت في هذا الحديث الكمال لآسية كما أثبته لمريم فامتنع حمل الخيرية في حديث الباب على الإطلاق، وجاء ما يفسر المراد صريحاً، فروى البزار والطبراني من حديث عمار بن ياسر رفعه: **«لقد فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين»** وهذا حديث حسن الإسناد"[3].

5 - ومن مناقبها رضي الله عنها التي دلت على شرفها وجلالة قدرها أن النبي ﷺ كان يكثر من ذكرها بعد موتها بالثناء عليها والمدح لها، وكان يأتي من العمل ما يسرها في حياتها، فقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة هلكت، قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما

(1) صحيح مسلم 2430.
(2) شرح النووي على صحيح مسلم 198/15.
(3) فتح الباري 135/7.

يسعهن"[1].

وروى مسلم رحمه الله بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت للنبي ﷺ على امرأة من نسائه ما غرت على خديجة لكثرة ذكرها إياها[2].

وروى البخاري رحمه الله بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: "ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد"[3].

في هذه الأحاديث الثلاثة "ثبوت الغيرة وأنها غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلاً عن دونهن، وأن عائشة كانت تغار من نساء النبي ﷺ لكن كانت تغار من خديجة أكثر، وقد بينت سبب ذلك وأنه لكثرة ذكر النبي ﷺ إياها، وأصل غيرة المرأة من تخيل محبة غيرها أكثر منها، وكثرة الذكر تدل على كثرة المحبة، وقولها رضي الله عنها: "وأمره الله أن يبشرها" إلخ.

هذا من جملة أسباب الغيرة لأن اختصاص خديجة بهذه البشرى مشعر بمزيد محبة من النبي ﷺ فيها. وقولها أيضاً رضي الله عنها: "وإن كان ليذبح الشاة" إلخ، من أسباب الغيرة لما فيه من الإشعار باستمرار حبه لها حتى كان يتعاهد صواحباتها، وقوله عليه الصلاة والسلام: "إنها كانت وكانت" أي: كانت فاضلة وكانت عاقلة ونحو ذلك"[4].

6 - روى الإمام أحمد بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء. قالت: فغرت يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق [5]، لقد أبدلك الله - عز وجل - بها خيراً منها. قال: **«ما أبدلني الله – عز وجل – خيراً**

(1) صحيح البخاري 3816، صحيح مسلم 2435.
(2) صحيح مسلم 2435.
(3) صحيح البخاري 3821 مسلم 2437.
(4) فتح الباري 136/7 - 137.
(5) قال النووي: معناه: عجوز كبيرة جداً حتى قد سقطت أسنانها من الكبر ولم يبق لشدقها بياض شيء من الأسنان إنما بقي فيها حمرة لثاتها، قال القاضي: قال المصري وغيره من العلماء: الغيرة مسامح للنساء فيها لا عقوبة عليهن فيها بما جبلن عليه من ذلك، ولهذا لم تزجر عائشة عنها. قال القاضي: وعندي أن ذلك جرى من عائشة لصغر سنها وأول شبيبتها، ولعلها لم تكن بلغت حينئذ"اهـ، شرح النووي 202/15.

منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله – عز وجل – ولدها إذ حرمني أولاد النساء» [1].

كل ما ذكر في هذا الحديث مناقب عالية لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يكثر من ذكرها والثناء عليها، وكان يعمل بعد موتها ما يسرها في حياتها حيث كان يصل من يودها بالقول والعمل.

قال ابن العربي رحمه الله تعالى مبيناً مكانة خديجة رضي الله عنها: "كان النبي ﷺ قد انتفع بخديجة برأيها ومالها ونصرها، فرعاها حية وميتة برّها موجودة ومعدومة، وأتى بعد موتها ما يعلم أنه يسرها لو كان في حياتها. ومن هذا المعنى ما روي من أن من البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه"[2].

7 - أخبر النبي ﷺ بأن حبه لها كان رزقاً من الله رزقه إياه، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه بإسناده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة وإني لم أدركها قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: **«أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»** قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة فقال رسول الله ﷺ : **«إني قد رزقت حبها»** [3]. هذا الحديث فيه بيان فضيلة حصلت لخديجة رضي الله عنها.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "قوله ﷺ : **«رزقت حبها»**، فيه إشارة إلى أن حبها فضيلة حصلت"[4].

من هذا يتبين أن: حبه ﷺ لما تقدم ذكره من الأسباب وهي كثيرة كل منها كان سبباً في إيجاد المحبة[5].

8 - ومما حظيت به رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يرتاح لسماع صوت من

---

(1) المسند مع الفتح الرباني 240/20 - 241، وأورده الهيثمي في المجمع 224/3 وقال: رواه أحمد وإسناده حسن.

(2) عارضة الأحوذي بشرح الترمذي 252/14.

(3) صحيح البخارى 3818، مسلم 2435.

(4) شرح النووي على صحيح مسلم 201/15.

(5) انظر فتح الباري 137/7.

يشبه صوته صوتها، لما وضع الله لها في قلبه من المحبة رضي الله عنها وأرضاها.

فقد روى الشيخان عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: "اللهم هالة" قالت: فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها[1].

"في هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حياً وميتاً، وإكرام معارف ذلك الصاحب"[2].

فلقد أكرم الرسول ﷺ خديجة رضي الله عنها إكراماً بالغاً في حال الحياة وبعد الممات.

9 - ومما دل على جلالة قدرها أن الباري - جل وعلا - أرسل إليها السلام مع جبريل وأمر نبيه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب اللؤلؤ المجوف المنظوم بالدر والياقوت. فقد روى الإمام البخاري بإسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب".

وروى أيضاً بإسناده إلى إسماعيل بن أبي خالد، قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: بشر النبي ﷺ خديجة؟ قال: **«نعم ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب»** [3].

هذان الحديثان تضمنا ذكر منقبتين عظيمتين لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وأرضاها:

الأولى: إرسال الرب - جل وعلا - سلامه عليها مع جبريل، وهذه الخاصة لا

(1) صحيح البخاري 3821، صحيح مسلم2437

(2) انظر شرح النووي 202/15.

(3) صحيح البخاري3820. مسلم2432

تعرف لامرأة سواها"[1]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: قوله: فاقرأ عليها السلام من ربها ومني: زاد الطبراني في الرواية المذكورة، فقالت: **«هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام»**، وللنسائي من حديث أنس قال: قال جبريل للنبي ﷺ : **«إن الله يقرئ خديجة السلام، يعني فأخبرها»** فقالت: **«إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول السلام ورحمة الله وبركاته»** [2].

قال العلماء: في هذه القصة دليل على وفور فقهها لأنها لم تقل: "وعليه السلام"، كما وقع لبعض الصحابة حيث يقولون في التشهد: "السلام على الله"، فنهاهم النبي ﷺ وقال: **«إن الله هو السلام، فقولوا: التحيات لله»**، فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام، كما يرد على المخلوقين، لأن السلام اسم من أسماء الله، وهو أيضاً دعاء بالسلامة وكلاهما لا يصلح أن يرد به على الله، فكأنها قالت: كيف أقول عليه السلام، والسلام اسمه، ومنه يطلب ومنه يحصل، فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه، فجعلت مكان رد السلام عليه، الثناء عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله وما يليق بغيره، فقالت: وعلى جبريل السلام ثم قالت: وعليك السلام، ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام، وعلى من يبلغه، والذي يظهر أن جبريل كان حاضراً عند جوابها، فردت عليه وعلى النبي ﷺ مرتين مرة، بالتخصيص ومرة بالتعميم، وقيل إنما بلغها جبريل عليه السلام من ربها بواسطة النبي ﷺ احتراماً للنبي ﷺ وكذلك وقع له لما سلم على عائشة لم يواجهها بالسلام بل راسلها مع النبي ﷺ [3].

الثانية: التي اشتملت عليها تلك الأحاديث لخديجة رضي الله عنها هي قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ : **«وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»**، وببيان معنى هذه المنقبة بأقوال أهل العلم يتبين حال خديجة، وما كانت عليه من القدر العظيم رضي الله عنها: فقوله: **«وبشرها ببيت»**، فقد قال أبو بكر الإسكافي في "فوائد الأخبار": المراد به بيت زائد على ما أعد الله لها من ثواب عملها ولهذا قال: "لا نصب

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد 105/1.

(2) فضائل الصحابة ص/198.

(3) فتح الباري 139/7، وانظر شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للشيخ عبد الله محمد الغنيمان 369/2 - 370.

فيه" أي: لم تتعب بسببه[1]. وقال السهيلي: "لذكر البيت معنى لطيف، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضاً غيرها، قال: وجزاء الفعل يذكر الفعل يذكر غالباً بلفظه وإن كان أشرف منه فلهذا جاء في الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر[2].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "وفي البيت معنى آخر؛ لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها لما ثبت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قالت أم سلمة: لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين فجللهم بكساء فقال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي»** الحديث أخرجه الترمذي[3] وغيره ومرجع أهل البيت هؤلاء إلى خديجة لأن الحسنين من فاطمة وفاطمة بنتها، وعلي نشأ في بيت خديجة وهو صغير، ثم تزوج بنتها بعدها فظهر رجوع أهل البيت النبوي إلى خديجة دون غيرها"ا. هـ[4].

وقوله ﷺ : **«من قصب»**، قال ابن التين: المراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف قال الحافظ عند الطبراني في الأوسط: "من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى: "يعني قصب اللؤلؤ"، وعنده في الكبير من حديث أبي هريرة: **«بيت من لؤلؤة مجوفة»** وعنده في الأوسط من حديث فاطمة قالت: قلت يا رسول الله: أين أمي خديجة؟ قال: **«في بيت من قصب»** قلت: أمن هذا القصب؟ قال: **«لا؛ من القصب المنظوم الدر واللؤلؤ والياقوت»** [5].

قال السهيلي: النكتة في قوله: **«من قصب»** ولم يقل من لؤلؤ أن في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، ولذا وقعت هذه

(1) الروض الأنف 278/1، فتح الباري 138/7.
(2) الروض الأنف 278/1 - 279، فتح الباري 138/7.
(3) سنن الترمذي 3871 وصححه الألبانى.
(4) فتح الباري 138/7.
(5) المصدر السابق.

المناسبة في جميع ألفاظ الحديث[1].

قال الحافظ ابن حجر: وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها[2].

ومعنى قوله ﷺ : **«لا صخب فيه ولا نصب»** الصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت، والنصب: التعب[3].

وقال أبو بكر بن العربي: "لا صخب فيه ولا نصب" معناه: عار عن الأذية[4] قال السهيلي: "مناسبة نفي هاتين الصفتين - أعني المنازعة والتعب - أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابت خديجة طوعاً، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك بل أزالت عنه كل نصب وآنسته من كل وحشة وهونت عليه كل عسير فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها"[5].

10 - ومما تميزت به رضي الله عنها أنها كانت ممن كمل من النساء، قال الحافظ ابن كثير: وروى شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قرة بن إياس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث، مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»** [6].

قال ابن كثير: رواه ابن مردويه في تفسيره، وهذا إسناد صحيح إلى شعبة وبعده قالوا: والقدر المشترك بين الثلاث نسوة آسية ومريم وخديجة أن كلا منهن كفلت نبياً مرسلاً، وأحسنت الصحبة في كفالتها، وصدقته، فآسية ربت موسى، وأحسنت إليه وصدقته حين بعث، ومريم كفلت ولدها أتم كفالة وأعظمها وصدقته حين نزل عليه

(1) الروض الأنف 279/1، فتح الباري 138/7.
(2) فتح الباري 138/7.
(3) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر 14/3، 62/5، فتح الباري 138/7.
(4) عارضة الأحوذي 252/14.
(5) الروض الأنف 279/1 وانظر فتح الباري 138/7.
(6) صحيح البخارى3769 مسلم 2431

الوحي من الله - عز وجل[1].

فهذا الحديث تضمن منقبة ظاهرة لخديجة رضي الله عنها حيث إن "لفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه، والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى"[2].

11 - ومما تميزت به رضي الله عنها: أنها لم تسؤه قط، ولم تعارضه، ولم ينلها منه إيلاء، ولا عتب قط ولا هجر وكفى بهذه منقبة وفضيلة[3].

12 - ومن مناقبها ما رواه الترمذي بإسناده إلى أنس أن النبي ﷺ قال: **«حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»**[4].

قوله: **«حسبك»** أي: يكفيك من نساء العالمين أي: الواصلة إلى مراتب الكاملين في الاقتداء بهن وذكر محاسنهن ومناقبهن وزهدهن في الدنيا وإقبالهن على العقبى.

قال الطيبي: حسبك مبتدأ، ومن نساء متعلق به، ومريم خبره، والخطاب إما عام أو لأنس أي: كافيك معرفتك فضلهن عن معرفة سائر النساء[5].

فالحديث اشتمل على منقبة عظيمة لخديجة رضي الله عنها، حيث بين النبي ﷺ أنها من النساء اللاتي بلغن التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى، فأفضل نساء الأمة المحمدية خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر الصديق، وفاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام، وقد اختلف العلماء في تفضيل بعضهن على بعض:

فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "جهات الفضل بين خديجة وعائشة

(1) الحديث السابق
(2) شرح النووي 198/15.
(3) جلاء الأفهام ص/125.
(4) الترمذى 3878، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى.
(5) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي 389/10.

متقاربة وكأنه رأى التوقف"[1].

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: "الخلاف في كون عائشة أفضل من فاطمة أو فاطمة أفضل إذا حرر محل التفضيل صار وفاقاً فالتفضيل بدون التفصيل لا يستقيم، فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله - عز وجل - فذلك أمر لا يطلع عليه إلا بالنص، لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح، وكم من عاملين أحدهما أكثر عملاً بجوارحه، والآخر أرفع درجة منه في الجنة، وإن أريد بالتفضيل التفضل بالعلم، فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة، وأدت إلى الأمة من العلم ما لم يؤد غيرها، واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها، وإن أريد بالتفضيل شرف الأصل وجلالة النسب، فلا ريب أن فاطمة أفضل فإنها بضعة من النبي ﷺ، وذلك اختصاص لم يشاركها فيه غير أخواتها، وإن أريد السيادة ففاطمة سيدة نساء الأمة، وإذا ثبتت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه صار الكلام بعلم وعدل، وأكثر الناس إذا تكلم في التفضيل، لم يفصل جهات الفضل، ولم يوازن بينهما فيبخس الحق، وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصب وهوى، لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم"[2].

وقال الحافظ ابن حجر: "امتازت فاطمة عن أخواتها بأنهن متن في حياة النبي ﷺ، وأما ما امتازت به عائشة من فضل العلم فإن لخديجة ما يقابله، وهي أنها أول من أجاب إلى الإسلام ودعا إليه، وأعان على ثبوته بالنفس والمال، والتوجه التام، فلها مثل أجر من جاء بعدها ولا يقدر قدر ذلك إلا الله، وقيل: انعقد الإجماع على أفضلية فاطمة، وبقي الخلاف بين عائشة وخديجة"[3].

وقد بين العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أقوال العلماء في تفضيل خديجة على عائشة أو العكس وبين أن في المسألة ثلاثة أقوال فقد قال: "واختلف في تفضيلها على عائشة رضي الله عنها على ثلاثة أقوال: ثالثها الوقف: وسألت شيخنا ابن تيمية فقال: "اختصت كل واحدة منهما بخاصة، فخديجة كان تأثيرها

(1) ذكره عنه الحافظ ابن حجر في كتابه "فتح الباري" 109/7.
(2) بدائع الفوائد 161/3 - 162، وانظر: فتح الباري 109/7.
(3) فتح الباري 109/7.

في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتثبته وتسكنه، وتبذل دونه مالها فأدركت غرة الإسلام واحتملت الأذى في الله وفي رسوله، وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها، وعائشة رضي الله عنها تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها هذا معنى كلامه"[1].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن أشار إلى الخلاف في أي أفضل خديجة أم عائشة رضي الله عنهما: "والحق أن كلاً منهما لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهره وحيره والأحسن التوقف في ذلك إلى الله - عز وجل - ومن ظهر له دليل يقطع به أو يغلب على ظنه في هذا الباب فذاك الذي يجب عليه أن يقول بما عنده من العلم، ومن حصل له توقف في هذه المسألة، أو في غيرها فالطريق الأقوم والمسلك الأسلم أن يقول: الله أعلم"ا. هـ[2].

وقال القاري في المرقاة: قال السيوطي في النقاية: "نعتقد أن أفضل النساء مريم وفاطمة، وأفضل أمهات المؤمنين خديجة وعائشة، وفي التفضيل بينهما أقوال ثالثها: التوقف قال القاري: التوقف في حق الكل أولى إذ ليس في المسألة دليل قطعي والظنيات متعارضة غير مفيدة للعقائد المبنيات على اليقينيات"[3].

وما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم والحافظ ابن كثير في مسألة التفضيل بين خديجة وعائشة هو معتقد الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة وهو القول بالتوقف وهو القول الذي تطمئن إليه النفس لما لكل واحدة منهما من الفضائل التي لا تحصى والله أعلم.

* * * * *

(1) جلاء الأفهام ص/124، وانظر بدائع الفوائد 162/3 - 163.
(2) البداية والنهاية 142/3.
(3) المرقاة 615/5.